خصائص التشبيه في القرآن الكريم

رابح دوب

إن أرقى التشبيهات في البيان العربي هي تلك التشبيهات التي وردت في القرآن الكريم وهذا الموضوع قد بُحث قديما وحديثا في أشتات متناثرة من مختلف الدراسات القرآنية (1) حتى إننا لا نجد كتابا بلاغيا ولا مبحثا قرآنيا ولا مصنفا في مجازات القرآن يخلو من الإشارة إليه (2) .

وقد أفرد لهذا الغرض " ابن ناقيا البغدادي " - ت 485 هـ - كتابه القيم (الجُمان في تشبيهات القرآن) (3) وكان بذلك - فيما نعلم - أولّ من خصص كتابا لتشبيهات القرآن بهذا المستوى من الضبط والسعة .

إذ تتبع ظاهرة التشبيه القرآني في ست وثلاثين سورة ، واستخرج من كل سورة آيات التشبيه وأشار إليه وحقق في معنى الآية وعلاقة التشبيه ووجوهه ، بما يُعدّ بحق نموذجا راقيا بالنسبة إلى عصره في الإحاطة بمظاهر التشبيه القرآني . ولا بد لنا من رصد هذه الظاهرة القرآنية لموقعها المتميز من غير استقصاء لأبعادها فهذا يستحيل مع البحث المختصر وإنما من بعدها النفسي و مسايرتها للكون و مظاهره فقط . (4)

ولعل الشيء الذي يستوقف الدارس في تشبيهات القرآن الكريم هو غورها في أعماق النفس الإنسانية وسبرها لمظاهر الكون والطبيعة واستقطابها لملامح الحس والإدراك البصري والسمعي وسبك ذلك كله في صياغة موحدة تنظر إلى هداية الإنسان وتهيئة ذهنه بما يحس أمامه وبين يديه وما يدركه واعيا في حياته العامة لذلك جاءت التشبيهات القرآنية ذات قدرة فائقة ولمحات جديدة :

تلك القدرة وهذه اللمحات قد استوعبا في نماذج كثيرة مظاهر الكون والحياة وعوالم الطبيعة وهبات المناخ في خضم مشاهد الدنيا ومن ثم فإننا نلمس التشبيه القرآني ذا صورة قائمة أساسا على الحركة والاستثارة والتلوين (5) . هذه الصورة تهدف إلى تقريب الأشياء وإبراز الحقائق واستخلاص العظات والبيّنات فيما تنبته الأرض وما ينزل عليها من السماء ، وفيما تتقاذفه الرياح وما يصاحب ذلك من نور وظلام ، ورعد وبرق وموج ولجج وسحاب وضباب وأصداء وأصوات ، وما تثير هذه العوالم مجتمعة من رعب وفزع أو أمن واستقرار . (6)

أولا : المظهر الطبيعي :

نماذج هذا المظهر كثيرة في القرآن الكريم وذلك لتقريب الصورة إلى ذهن المتلقي نظرا لمعايشته اليومية لتلك المظاهر وفي هذا البحث نستدل على هذا المظهر بصورتين فقط : الأولى في تشبيه حال المنافقين والثانية حال الكافرين وأعمالهم .

أ- المظهر الأول : يصوره قوله عز وجل : « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير » . (7)

يصوّر المولى تبارك وتعالى في هذه الآيات حال المنافقين في موقفين متتاليين ، ليكشف عن طبيعتهم وتقلبهم وليزيد هذه الفئة من الناس جلاء ووضوحا . إذ أن هؤلاء المنافقين لم يعرضوا عن الهدى منذ البداية ولم يصموا آذانهم عن السماع وعيونهم عن الرؤية وقلوبهم عن الإدراك ، كما فعل الذين كفروا ، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى بعدما استوضحوا الأمر وتبينوه .

لقد استوقدوا النار فلما أضاء لهم نورها لم ينتفعوا بها وهم طالبوها ، عندئذ ذهب الله

بنورهم الذي طلبوه ثم ضيعوه وتركهم في ظلمات لا يبصرون جزاء إعراضهم عن النور .

ففي الصورة الأولى : يشبه عز وجل المنافقين في حالتهم العجيبة الشأن ، حيث اشتروا الظلالة بالهدى وبصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى بقوم أوقدوا نارا لتضيء لهم ، فلما أضاءت لهم وأبصروا في ضوئها ما ينفعهم وما يضرهم ، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارى تائهين انطفأت عنهم الأنوار وبقوا في ظلمات لا يبصرون .

وهذا التشبيه المركب يوضح حالة هؤلاء المنافقين مصورا ماهم فيه من اضطراب ساخرا منهم غاية السخرية فقد بُدِئَ هذا التصوير بقوله تعالى : " مثلهم " بغير عطف لأنها جملة مقررة لجملة قصة المنافقين ، كما أن التمثيل يكشف المعاني ويوضحها لأنها بمنزلة التصوير والتشكيل لها . (8)

أما الصورة الثانية : فإن الحركة فيها تغمر المشهد كله : من المطر الهاطل إلى الظلمات والرعد والبرق إلى الحائرين المفزعين ، وهذه الحركات ترسم بواسطة التأثر الإيحائي حركة التيه والإضطراب والقلق التي يعيشها أولئك المنافقون بين لقائهم للمؤمنين وعودتهم إلى شياطينهم، بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة بين ما يطلبون من هدى ونور وبين ما يفيئون إليه من ضلال وظلام ، إنه مشهد حسي يرمز لحالة نفسية ويجسم صورة شعورية وهذا من خصائص التشبيه القرآني في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس (9)

لذلك يصور عز وجل المنافقين بقوم أصابهم مطر شديد أظلمت له الأرض وأرعدت له السماء وهو مصحوب بالبرق ، وهم لما أصابهم الهلع والذعر جعلوا أصابعهم في آذانهم من الصواعق خشية الموت ظنا منهم أن ذلك ينجيهم ولكن هيهات فالله محيط بالكافرين .

وعلى الرغم من أن هذا البرق يصيبهم بالخوف والرعب فإنهم يترقبون الفرصة للإفلات من هذا الموقف ، ولكنهم يستمرون على هذه الحال نكالا لهم ، وهذا التمثيل معطوف على ما قبله بحرف العطف " أو " ويرى الزمخشري في الكشاف (10) أن " أو " في الأصل لتساوي أمرين فصاعدا في الشك ثم اتُّسع فيها فاستعيرت للتساوي في غير الشك ، ومن ثم فإن قوله تعالى : " أو كصيِّب " معناه " إن كيفية قصة المنافقين مشبهة لكيفية هاتين القصتين سواء في استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل فبأيهما مثلتها فأنت مصيب وإن مثلتها بهما

جميعا فكذلك .

يقول الزمخشري : " فإن قلت أي التمثيلين أبلغ ؟ قلت : الثاني لأنه دل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته ولذلك أخر وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ " (11)

ب- المظهر الثاني : بصوره قوله تعالى : " والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور " (12)

نلاحظ في هاتين الآيتين أن التشبيه المركب مادة فنية خصبة : فالظمآن الذي يطلب الماء ، إن أخفق في تحصيله أخفق في حياته لأنه في قيض لا يرحم وظمإ لا يهدأ ، فسكرات الموت حينئذ أقرب إليه من حبل الوريد ، وأعمال الكافرين صورة لطالب الماء ثم لا يجده ومثال للسراب الذي يشتد نحوه الظمآن فيفاجئ به وهو يظنه ماء يروي عطشه وإذا به يذهل لفقدان الماء ووجود الله بالمرصاد ، وهي مفاجأة أخرى ليست في الحسبان وحينما يخفق في الوصول إلى ذلك الإلتماع في الآل الذي حسبه ماء ، تصدمه الظلمات المتراكبة في بحر شديد الأمواج يعلوه سحاب فتتكون بذلك طبقات من هذه الفوقيات : الموج فوقه موج من فوقه سحاب فهو في ظلمات يفقد معها حاسة البصر كما فقد حاسة البصيرة من قبل .

ثانيا : الكائنات الحية :

بالإضافة إلى التشبيه بالظواهر الطبيعية عند القرآن الكريم إلى الكائنات الحية من الحيوانات فوجد فيها ملاءمة لضرب الأمثال وتصوير الأحداث وصدق التشبيه ومسايرة الواقع (13)

فاختار أوهنها لتشبيه ضعف العبادة وهو العنكبوت وأغباها لمن يحمل العلم ولا ينتفع به وهو الحمار ، وأتعبها لمن يشتد لهاثه لا إلى غاية مجدية معينة وهو الكلب وهكذا ... وتأتي

هذه الكائنات في الإستعمال التشبيهي متناسقة مع التصوير الفني لحقائق الأشياء وطبيعة الموصوفات وأوجه الشبه المناسبة بما يحقق الجانب البلاغي في مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

وهي على الشكل التالي :

أ- فهؤلاء العاكفون على أصنامهم التابعون لأهوائهم يسيئون صنعا ويحسبون أنهم محسنون ، يبذرون جهودهم في بناء الأوهام واتخاذ الأنداد لله تعالى ، فهم في عمل لا جدوى فيه وجهد لا تعويض عنه فيبرز تشبيههم بالعنكبوت التي تجهد نفسها في بناء بيت ليست له مقومات البيوت ولا إحكام البناء فهو نتاج واهن ضعيف وكذلك عبادتهم في الضعة والضعف (14).

قال تعالى : " مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون " (15)

ب- وحينما يرى المولى عز وجل اليهود وقد كلفوا ثقل الأمانة وأدركوا سر العقيدة وتحملوا عبء التوراة ، ثم نكصوا على أعقابهم وتخلوا عن كل ذلك ، فهم لا يعملون بمضمونها ولا يصيخون سمعا لندائها ، تاركين وراءهم الحق المبين فهم بذلك على درجة قصوى من الغباء والضياع ، حينما يلاحظهم هكذا فتشبيههم بالحمار وهو يحمل كتبا نفيسة " جاء مطابقا لمقتضى ظروفهم الفعلية التي يحيونها إذ ليس من شأن الحمار أن يستفيد بمضامين الكتب وليس له منها إلا الثقل في الحمل " (16) وكذلك شأنهم حينما تبينوا صدق الرسالة المحمدية بإنباء التوراة عنها ثم خلفوها وراء ظهورهم ولم يعملوا بما علموا ، فالحمار إذن أبلغ تشخيص لهم يمثلهم عز وجل بمجموعة أوضاعه في حالة حمله الأسفار ، وفيه إشعار بالمهانة وتصريح بالتحقير في صورة مزرية ، وكيفية تجلب السخرية والإستهزاء .

قال تعالى : " مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين " (17)

ج- وهذا الذي انسلخ من آيات الله بعد عرفانه بموضعها وإدراكه لسرها قد أخلد إلى الأرض واتبع هواه وضل في غوايته ناصبا لاغبا قدم له المولى أصدق صورة في الكلب اللاهث ، يخرج لسانه ويسيل لعابه وتخفق جانباه في حالتي راحته وتعبه ، وصورتي إبرائه وإبعاده ،

فالكلب هنا أنسب كائن حي يراعي مقتضى الحال ، فالذي انسلخ يكد ويكدح في تحريف كلمات الله ، فهو جاحد لها أو رافض لمضمونها فالحالة هذه تمثله وهو ينوء بعبء لم يستفد منه ويعاني ثقلا لم ينهض به ، بالكلب في نصبه الكادح بداع وبغير داع (18) . قال تعالى : " واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون " (19)

وهكذا نجد الكائنات عنصرا من عناصر التشبيه اقتضته ضرورة الصورة لتحقيق الغرض الفني ، فهو لم يرد مستعملا بوصفه تشبيها فحسب بل بوصفه أسلوبا من أساليب البيان يعتمد عليه القرآن الكريم لتشخيص الحقيقة سليمة من الغموض والإبهام .

ثالثا : معطيات الطبيعة

أ- فالقرآن الكريم حينما يشبه أمرا معنويا طيبا وعملا إنسانيا صالحا وكلمة نزيهة صادقة، يجد في معطيات الطبيعة من هبات الخالق عز وجل تشخيصا لهذا المدرك العقلي ، فهو يعد مباركا ثابتا متطاولا ، والشجرة الطيبة في نموها وظلالها ورسوخها خير مثال له في التشبيه المنتزع من أمور متعددة ، والعكس بالعكس في الأمر المعنوي الخبيث في ملامته للشجرة الخبيثة في بقعتها وثمرتها وزعزعتها عن الأرض وهو بهذا يضفي الظل المحسوس الذي يشاهده الإنسان على ذلك الظل الخفي الذي لا يدرك إلا بتصويره وتخييله (20) وذلك في قوله تعالى: " ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار" (21)

ب- والله عز وجل حينما يريد تشبيه الصدقات التي لا تجلب نفعا ، ولا تدفع ضرا ولا تستنزل رحمة ، لأنها امتزجت بما يفسدها من الرياء بين الناس تارة واختلطت بما يعكرها من المن والأذى مرة أخرى يجد في (الصفوان) الذي يغطيه غشاء شفاف من التراب فيصيبه المطر ويتجمد عليه فيصبح متحجرا صلدا صورة شاخصة لبلوغ التشبيه ذروته في التجسيد

وذلك بتخيل هذا الحجر ناتئا بارزا وقد غطي بغلاف خارجي من التراب المبتل بوابل المطر تعبيرا عن القلب الذي يصبح في غشاوة مما داخله من الرياء أو بما نفث من المن والأذى فبدلا من أن يساعد المطر المنصب عليه في إزالة التراب المتراكم إذا به يزيد الحجر قساوة فيتصلب أكثر فأكثر وذلك في قوله تعالى : " ياأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين " (22)

في حين تطالعنا الصورة الأخرى لهذا العمل - الصدقات - مقترنة بمرضات الله وتثبيت النفوس وإذا بها حقيقة أخرى تمثل الرحمة والبركة لكن مع فارق في الطرح وذلك في قوله تعالى: " ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير " (23)

فالقلب هنا منجذب بعامل روحي فانفتح لتلقي التوبات وبذلها على فطرتها وسبيلها المطلوب كما تتفتح الأرض في المكان الرحب والذروة المرتفعة تباركها النسمات والسحاب ، فيتضاعف عطاؤها ويزكو ثمرها فالصورة التشبيهية منتزعة من طبيعة الأرض في قسوتها وبركتها في كلا الموضعين ، وممتزجة بعوامل المناخ في تقلباته وعطائه ولكنها تترصد أيضا مناخ المرء في سلوكه فما كان جافا غليظا منهما شبه بمثله وهو الحجر الصلد وما جاء متفتحا متبرعما شبه بمثله وهو البقعة الطيبة في نشز الأرض تغاديها السحب ويراوحها الغيث والندى (24)

ج- كما يوضح التشبيه القرآني صورة تكالب الناس في الحياة الدنيا وتفاخرهم بما لا يبقى وتكاثرهم بما يفنى فيمثل كل ذلك بهيأة الغيث المنقطع عن الزرع بعد إنعاشه له لحظات وإذا به يجف دون إنذار ، فيصفر الزرع ويتفتت نتيجة عدم الموازنة في السقي ليصبح حطاما تذروه الرياح وبينما هو نبات يعجب الزراع وإذا به هباء يتطاير من هنا وهناك والتشبيه يضع هذه الصورة في ملابساتها المتناقضة ومضاعفاتها غير المرتقبة تجاه أمر الدنيا وأمام المعجبين بزخرفها والمتكاثرين بأوضارها وذلك في قوله تعالى : " اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج

فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور " (25)

من خلال الآيات الكريمة التي ضمنها عز وجل صورا بيانية ندرك بعمق ظاهرة التشبيه في القرآن الكريم مقترنة في أبعاد متعددة بالظواهر الكونية والكائنات الحية ، كما نلتمس فيها انتزاع وجه الشبه من أمور متعددة قائمة على مجموعة الصور المستنبطة من اللوحة التصويرية التي يرسمها المشهد التشبيهي ، حتى أصبح التشبيه التمثيلي سمة بارزة لهذه الظاهرة المعجزة في صوره ولوحاته عن التشخيص .

الهوامش :

1- أصول البيان العربي : محمد حسين علي الصغير ص 80
2- أنظر مثلا : المجاز في اللغة والقرآن الكريم : عبد العظيم المطعنى (ج 1)
3- تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي بغداد 1968
4- يأتي تفصيل هذا في أطروحة الدكتوراه للباحث " الدرس البلاغي في كتب التفسير حتى القرن الرابع "
5- أصول البيان العربي : محمد حسين علي الصغير ص 81
6- الصورة الفنية في المثل القرآني : محمد حسين علي الصغير 187
7- سورة البقرة من الآية 17 إلى 20
8- خصائص التشبيه في سورة البقرة : ابراهيم علي حسن داود ص 56
9- التصوير الفني في القرآن سيد قطب ص (71 - 86)
10- الكشاف : الزمخشري ج 1 ص 213 ، 214
11- الكشاف : الزمخشري ج 1 . ص213
12- سورة النور الآية 39 - 40
13- من بلاغة القرآن : أحمد بدوي ص 225
14- التصوير الفني في القرآن : سيد قطب ص 42
15- العنكبوت الآية 41
16- أصول البيان العربي : محمد حسين علي الصغير ص 82
17- سورة الجمعة الآية 5
18- التصوير الفني : سيد قطب ص45
19- سورة الأعراف الآية 175 - 176
20- التصوير الفني سيد قطب ص79

21- سورة ابراهيم الآية 24-26

22- سورة البقرة الآية 264

23- البقرة الآية 265

24- أصول البيان العربي ص 84

25- الحديد الآية 20 .